

دور يهود توات خلال العصر الوسيط

*أ.قومي محمد

الملخص:

في هذا المقال نتناول فيه دور يهود توات خلال العصر الوسيط، حيث برزت طائفة اليهود كأهم الشعوب التي عاشت بمنطقة توات خاصة في فترة القرون الوسطى، نتيجة ما قاموا به من دور هام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، هذا الدور لم يكن سلبيا فقط وإنما كذلك كانت لهم أدوار ايجابية.

إن دورهم الاقتصادي تمثل في احتراف وممارسة التجارة حيث لعبت منطقة توات دورًا كبيرًا في التجارة الصحراوية من خلالهم، وكذلك اهتموا الحرف اليدوية وامتلاك الفقاقير، أما الدور السياسي فتمثل أساسا في المساهمة في تعيين القضاة، اضافة إلى الادوار الاجتماعية والعمرانية والدينية.

Abstract :

Touat's Jews Roles During the Middle Ages

In this essay, we tackle the Jews' roles in Touat during the Middle Ages. They were considered as the most important people in Touat in that age, due to their crucial role in social, economic, cultural, and political aspects of life at that time. That role was not only negative, but it rather was positive as well.

As for the economic aspect, they practised the trade. And thanks to this activity, the Touat region played an essential role in incresing the Saharian Trade.

Furthermore, they practised handcrafts and owned the 'Fakakirs'.

* - أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، المركز الجامعي البيض، الجزائر.

In politics, their role was depicted essentially in appointing lawyers and judges. Furthermore, they had important roles in social, urban, and religious life.

مقدمة:

ارتبط إقليم توات كغيره من الأقاليم الصحراوية بتجارة القوافل والمسالك العابرة للصحراء فالإقليم يقع في الصحراء الغربية الجزائرية وهي تمثل جزء من الصحراء الإفريقية الكبرى ويبدأ عند نهاية السائرة ويمتد جنوبا إلى حدود هضبة تادميت، وقد لعب الإقليم دورا هاما ورائدا في التجارة العابرة للصحراء إذ اعتبر منطقة عبور للسلع القادمة من الشمال نحو بلاد السودان والعكس، لذا سوف يشهد الإقليم ترسب عناصر سكانية هامة هجرت إليه منذ العصور التاريخية الأولى، إذ تعايشت فيه كل العناصر الموجودة في شمال إفريقيا تقريبا والتي اتخذت من واحاته مقرا لها قصوده أفرادا وجماعات، أعطت مع مرور الزمن سكان قصوره مع التباين الكبير في أصولهم والأماكن التي أتوا منها.

وبرزت طائفة اليهود كأهم الشعوب التي عاشت بمنطقة توات خاصة في فترة القرون الوسطى، نتيجة ما قاموا به من دور هام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية، هذا ما مكّنهم من السيطرة وبشكل تدريجي في كل صغيرة وكبيرة في الإقليم وفي أهم النشاطات الاقتصادية وأشدّها حساسية، وفي السياسة والقضاء.

الدور الاقتصادي:

1- دورهم في التجارة:

تعتبر التجارة بمثابة دين ثاني لليهود إذ احترفوها ونشطوا بها أينما حلوا ورحلوا منذ العصور القديمة، وقد سبقت الإشارة إلى أن منطقة توات لعبت دورًا كبيرًا في التجارة الصحراوية، هذا الدور عزّزه تواجد اليهود بالمنطقة وقد سجل معظم الباحثين الريادة اليهودية في هذه التجارة، فكانت لهم مشاركة مهمة في تجارة القوافل، هذه الأخيرة لعبت دور لا يمكن أن ينكر بأي حال من الأحوال في ازدياد أهمية الواحات التواتية مقارنة بمجموع الواحات الصحراوية الأخرى¹، كما أنه لا يمكن تفسير عددا من الأحداث والصراعات التي وقعت في توات وحولها إلا في إطار تجارة القوافل بعد أن أصبحت هذه الواحات ممرا رئيسا لها .

هذه التجارة ذرت على اليهود أموالا طائلة وثروات فاحشة ما مكنهم من بسط نفوذهم على جميع الميادين فتحكموا في الحركة التجارية بمختلف مسالكها خاصة تلك التي تعتبر إقليم توات أحد محاورها الرئيسة وهي²:

- من ناحية الشمال نجد ثلاثة مسالك مختلفة تربط بين:

توات ---- فجيج

توات ---- الجنوب الوهراني

توات ---- وسط الجزائر مرورا بغرداية

ويمكن لهذه المسالك أن تشترك في بعض المراحل مثل مسلك توات -

الجنوب الوهراني مرورا بفجيج .

- من ناحية الجنوب فنجد ثلاثة مسالك وهي:

توات ---- تمبكتو

توات ---- الهقار

توات ---- سجلماسة

- من ناحية الشرق نجد مسلك واحد متمثل في:
- توات ---- غدامس ---- طرابلس. وهو نفسه المسلك الذي كان يتبعه الحجاج المغاربة.
- من ناحية الغرب فنجد مسلك واحد متمثل في:
- توات ---- الصحراء الغربية.
- كما أن هناك مسلك: توات ---- تافيلالت. الذي يحتوي على جزئين شمالي وجنوبي³.

وقد سيطر اليهود بشكل خاص على التجارة الخارجية للإقليم، هذه التجارة التي تعتبر بمثابة رئة يتنفس بها اقتصاد أي بلد، فكان على رأس كل قافلة تجارية يهودي يقودها، مما جعلهم يتحكمون في العناصر التي تشكل هذه التجارة الخارجية وهي الصادرات والواردات، أي السلع الواردة لتوات والصادرة عنها إضافة إلى العابرة من الشمال إلى الجنوب عبره، فمن بين السلع التي حركت عجلة التجارة آنذاك والتي تحدثت عنها كتب التاريخ والجغرافيا بإسهاب نذكر منها الذهب الذي كانوا يحصلون عليه من بلاد غانا المشهورة بمناجمه حتى أطلق عليها الجغرافيون والرحالة بلاد الذهب⁴، بالإضافة إلى الساحل الجنوبي للسنغال ومدينة أودغشت التي بها أحسن أنواع الذهب⁵، وإلى جانب الذهب هناك سلع أخرى كانت تنقل من الجنوب نحو الشمال منها: الملح⁶، والرقيق (العبيد)، والعطور، وريش النعام، وجوز الكولا، والجلود، والعاج.

أما السلع التي كانت تحملها القوافل من الشمال نحو أسواق الصحراء منها:

الأقمشة المتنوعة، والأسلحة المختلفة، لتسليح القوات المحلية كالدرع والخوذ والسهام والتروس والبنادق والسروج والألجمة والمهازم والأواني المنزلية والأدوات الحديدية والزجاجية والفخارية والخردوات والروائح العطرية والعشبية والصبغية وأدوات الزينة والتجميل، بالإضافة إلى الكتب المنسونة والورق والأقلام، يضاف إليها الخضر الجافة والزيت والشحوم والزبدة والأغنام والأصواف⁷.

وحسب رواية سيدة من سكان تمنطيط أن التواتيين كانوا ينتظرون بشغف كبير وصول هاته القوافل من أجل شراء كل ما يحتاجونه منها أو استبداله بالتمر بعدما يوزن بميزان لونه أصفر، لأن المنطقة كان يغلب عليها زراعة النخيل⁸، ويذكر عبد القادر زبادية إن استقبال هذه القوافل لم يقتصر على السكان بل شارك فيه حتى الأمراء الذين كانوا يستقبلون التجار بحفاوة ويهيئون لهم الأمن ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم وما ذلك إلا للأهمية الاقتصادية والحضارية التي كانت تترتب عن مجئ التجار بأعداد كبيرة إلى بلاد السودان⁹، وعند وصول القافلة تضيف السيدة أن اليهود كانوا يبيعون للسكان ما يحتاجونه لكن ليس بالكمية التي يحتاجونها، حيث يلجؤون إلى التوسل لهم من أجل طلب الزيادة، تقول السيدة في ذلك كلاما يتخلله صمت رهيب "زيدونا شويا" أي أضيفوا لنا قليلا، ثم يرد عليهم اليهودي "والله ما نزيدك أيها المسلم"، ورغم كل هذا فعند انتهاء البيع وموعد رحيل القافلة كانوا يقومون بتوديعها بقولهم كما جاء على لسانها "يوصلك على خير ياسيدي اليهودي"¹⁰.

بالإضافة إلى أن أغلب الدكاكين والحوانيت في مدينة تمنطيط تضيف السيدة أنها كانت لليهود، وهذا ما أكده محمد الطيب بن بابا حيدة أن مدينة تمنطيط لوحدها كان يوجد بها ثلاثة مائة وستون صائغا يهوديا¹¹، وقد لاحظ الإمام المغيلي عند قدومه إلى توات سنة 870هـ / 1465م هذه السيطرة التجارية لليهود في المنطقة والتي جعلت حياتهم تسير في سلم تحت ظل الرؤساء الذين يدافع كل واحد منهم عن أتباعه ولهذا تمتع اليهود بحياة هائلة، حيث يتحكمون بالتجارة ويجنون الأرباح، وكانوا موضع ثقة الكثير من سكان المنطقة¹².

ومن هنا يتضح لنا أن احتكار اليهود للتجارة التواتية الصحراوية جعلهم الممول الرئيسي والوحيد لسكان المنطقة بكل ما يحتاجونه، لكن بالكيفية التي أرادوها مما جعلهم ينالون الاحترام والتقدير اللامشروط من طرف السكان بالرغم من أنهم يعيشون كأهل ذمة كما يفترض بهم. كما يتضح لنا أن التجارة في توات أو بالأحرى المعاملات التجارية كانت مختلفة حسب الأطراف المساهمة في عملية البيع والشراء، فالتجارة بين اليهودي واليهودي ليست كالتجارة بين اليهودي وباقي سكان توات من غير اليهود (خاصة المسلمين) وهذه مساهمة في تغذية ونشر التفرقة والتمييز العنصري بين سكان توات والذي سوف تتضح معالمة فيما بعد.

2- الحرف اليدوية:

إلى جانب التجارة عرف كذلك اليهود بإتقانهم العديد من الحرف والصنائع¹³ وعندما استقروا في منطقة توات أتوا معهم بالكثير من المعارف التقنية والطرق الصناعية كصياغة الحلي من الذهب والفضة، وهذه الحرف التي اختص بها اليهود في توات كونه يقع على طريق هذه التجارة وقد تحدث

عنها ابن بابا حيدة وعن انتشارها في تمنطيط لوحدها دون سائر قصور توات بين اليهود.

ومما أورده ابن بابا حيدة يتضح لنا أن مدينة تمنطيط كانت مركز مهما في صياغة الذهب والفضة يرجع إلى اليهود الذين عملوا بها، فكانوا يشترون الذهب الخام من القوافل التجارية القادمة من منابع الذهب في بلاد السودان، ثم يقومون بصياغتها على أنواع وأشكال مختلفة من الحلي ثم تباع في الأسواق الداخلية التواتية أو في الأسواق الخارجية الشمالية منها والجنوبية ما جعلهم يكسبون من وراء ذلك أموالا وثروات كثيرة.

ولم يمارس اليهود الحرف فقط في تمنطيط لوحدها بل كذلك في قورارة وبالضبط في قصور تابلوكوزة مثل قصر " تاملزيت " ¹⁴ الذي عرف حضورا يهوديا قديما، فهذه الكلمة التي أطلقت على القصر المذكور آنفا، قد تعود إلى استقرار جماعة سكانية احترفت صهر المعادن وقد يكون أن المقصود بهم هنا هم اليهود ما دامت هذه الطائفة اشتهرت بإتقان تصنيع الحديد ومواد معدنية أخرى ¹⁵.

ولكن يعتقد أن هذه المنتجات الحرفية لم تكن أصلية وإنما كانت مغشوشة وتباع للناس على أنها أصلية مثل المصنوعة من الذهب والفضة، وهذا ما عبر عنه الأستاذ مبروك مقدم بالانحراف الاقتصادي الذي لم يتفطن له المجتمع التواتي إلا بعد ظهور الحرف الإسلامية التي أتى بها العرب معهم من البلدان التي جاءوا منها ¹⁶، لكن هذا التفطن يطرح العديد من الأسئلة من بينها هل كان في بداية مجئ العرب والإسلام ، وإذا كان كذلك فلماذا لم يقوموا بأي تغيير، بل نجد بعضهم من تعاون معهم إلى حين قدوم الإمام المغيلي إلى توات في القرن التاسع الهجري أي القرن الخامس عشر الميلادي الذي سوف يقوم بحركة ثورية على الأوضاع السائدة في توات آنذاك، وهل يعود هذا

التعاون إلى المصالح الاقتصادية المشتركة، وبالتالي يجري تغييب المبادئ وما تأمر به العقيدة الإسلامية ؟

3- حفر الفقاقير:

الفقارة تعتبر وسيلة من وسائل السقي واستغلال المياه الجوفية في منطقة توات، وهي عبارة عن سلسلة من الآبار تتصل ببعضها البعض لتشكل مجرى مائي ينحدر من مستوى أرض عالي إلى مستوى منخفض، به تسقى الأراضي الزراعية، والفقارة كانت ولا تزال أحد أقدم وأغرب أنظمة السقي ليس في توات وحدها بل في كافة المعمورة، وقف عندها ابن خلدون مندهشا ومستغربا إذ يقول في وصفها : " ... وفي هذه البلاد الصحراوية إلى ما وراء العرق طريقة غريبة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلؤل المغرب وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوة وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق جرمها ثم تصعد الفعلة ويقذفون عليها زبرة من الحديد تكسر طبقها عن الماء فينحت صاعدا فيفعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا، ويزعمون أن الماء ربما أعجل بسرعته عن كل شئ وهذه الغريبة موجودة في قصور توات وتيكورارين وواركلا وريغ والعالم أبو العجائب والله الخلاق العليم"¹⁷.

هذا الوصف الدقيق الذي ذكره ابن خلدون للفقارة في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي والذي أثارت إعجابه حتى نعتها بالغريبة جعلت المؤرخين لها يختلفون في تحديد أصل تسميتها بالفقارة ومن كان له السبق في نشأتها.

ففي أصل التسمية فلم يرد في القاموس مصطلح " فقارة " بتشديد القاف كجمع أو مصدر للفعل، لكن ورد في لسان العرب لفظ فقارة من غير

تشديد بمعنى الفقر لأنه لم يرد مشددا، ومعلوم أن العرب في تخفيفها وتسهيلها للنطق تميل إلى تخفيف المشدد لا إلى تشديد المخفف كأن يكون أصل اللفظ فقارة ثم يخفف نطقه فيصبح فقارة مثل: النهار، الدراهم ...¹⁸ ، وأورد المؤرخ محمد بن عمر البداوي نصا في أصل التسمية إذ يقول: " واصطلحوا على تسميتهم بالفقائير على ضربا من الشبه لان الشيء يشبه الشيء فشبهوا صفة الفقارة بصفة فقارة الظهر من كل حيوان له فقارة "¹⁹ ، أي شبهوا أبارها المتعددة والمتصلة التي تفقر من كل جنب ليمر الماء عبره، بالعمود الفقري عند الحيوان الذي يتكون كذلك من فقارات متصلة ببعضها البعض، وهناك من يطلق عليها مصطلح آخر وهو " الفجارة " نسبة إلى تفجير الماء .

وما ورد من اختلاف في أصل مصطلح «الفقارة» نجد كذلك الاختلاف نفسه في تحديد إختطاطها وإنشائها وأصحاب الفضل والسبق في ذلك بتواتر، فالأستاذ عبد الله حمادي الإدريسي يقول أن هذه التقنية التقليدية المائية كانت معروفة منذ القديم بالشرق العربي ومنه بلاد الحجاز بجزيرة العرب وانتقلت إلى بلاد المغرب مع الفتوحات الإسلامية أو بعدها، وكانت تعرف باسم "الكظامة" أو "الفقير" أو " الشراج"، وتسمى ببلاد فارس (إيران وما جاورها) " بجانوت " وتسمى بأفغانستان " خيراز " وتسمى بالجنوب المغربي " بالخطارة " وتسمى ببلاد التوارق بإيفلي " وتسمى بواحة تلبالة بالجنوب الجزائري "بونج بيني"²⁰ ، أما صاحب درة الأقالام محمد بن عبد الكريم التمنيطي فرجع إنشاؤها إلى قبائل بدوية زناتية نزلت " ببودة فوجدوا مياه الوادي قد جفت فاخترتوا الوادي ثم حفروا سلسلة من الآبار أنقذوها ببعضها وزرعوا بعض أراضي الوادي... واتخذوا مجرى الوادي بساتين وأجنات ونحتوا الفقائير "²¹ ، أما صاحب نقل الرواة فيقول أن حفرها قديم وأن قبائل زناتة هم من قام

بحفرها بناء على ما رآه تقيدا منقولا بخط العلامة الشيخ سيدي عبد الرحمن بن باعمر²² ناقلا له من كتاب عم والده الشيخ سيدي أحمد بن يوسف التتلائي²³ حين تكلم على من سبق بعمارة توات من زناتة إذ يقول: "وهم الذين اتخذوا خدمة الفقاقير وابتدعوها بحرفة لم يسبقهم غيرهم إليها"²⁴، ويورد الأستاذ محمد الصالح حوتية قصة نقلها عن مولاي الحسن القيلاوي صاحب كتاب "النوازل العشر إلى اتصاف الميسور" مفادها أن أحد الأشخاص كان مطاردا من طرف أحد ملوك المغرب في نهاية القرن الأول الهجري فنزل بقصر تمنطيط وحفر بها أول فقارة المسماة حاليا "بهنو"²⁵ أما صاحب القول البسيط أرجع إنشائها إلى الأقباط سكان مصر، وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه مارتان إذ يتحدث عن هجرة عدد من سكان مصر إلى إقليم توات بعد سقوط دولة العبيديين فتملكوا الأراضي وأقاموا القصور ونظموا طريقة السقي بأسلوب حفر الترع تحت الأرض فأخرجوا المياه من باطن الأرض إلى سطحها فسموا هذه الطريقة بالفقارة، وهناك رأي آخر يرجعها إلى فرار جماعة من البرامكة من بغداد بعد نكبتهم على يد الرشيد²⁶ سنة 186هـ، فقدم بعضهم إلى قصور توات السفلى وواحة سالي فنقلوا طريقة حفر الفقاقير التي كانت مشابهة في هندستها ما كان جاري به العمل بإيران²⁷، أما المؤرخ عمر بن عبد الرحمن المهداوي فيرجع تأسيسها الأول في المنطقة إلى اليهود²⁸.

من خلال هذه الآراء المتباينة ومقارنتها بوصف ابن خلدون لها الذي خص هذا النظام من السقي بالبلاد الصحراوية الواقعة وراء العرق، كما نفى وجودها في تلؤل المغرب ما عدا في البلدان التي ذكرها بقوله: "وهذه الغربية (يعني الفقارة) موجودة في قصور توات وتيكورارين وواقلا وريغ"، هذا الكلام لابن خلدون ينفي جميع الآراء القائلة أن هذا النظام دخیل على المنطقة ومصدره الأصلي من المشرق، والراجع أن إحداث الفقرات يعود إلى عبقرية

الإنسان الصحراوي الزناتي بتوات قام بإنشائها ليتغلب على وسطه الطبيعي وظروفه المحلية الصحراوية، وحتى الرأي القائل أن اليهود لهم دور في إنشائها يحيلنا إلى التساؤل عن اليهود المعنيين، الذين أتوا من المشرق أو الذين أتوا من الشمال، أو اليهود البربر الذين دخلوا في الديانة اليهودية، لأنه من المفترض أن يكونوا أتوا بها من أوطانهم الأصلية، لكن هذا لا يمنع من القول أن اليهود ربما قاموا بشراء البساتين والأراضي الزراعية ومعها مصدرها المائي الفقاقير، لأن اليهود كانوا أصحاب مال وثروة سمح لهم بامتلاك ما من شأنه يخدم مصالحهم في المنطقة وغيرها.

الدور السياسي:

1- تعيين القضاة:

بعد سقوط دولة الموحيدين (660هـ / 1262م) انقسم المغرب الإسلامي إلى ثلاث دويلات وهم، بنو حفص بتونس، وبنو زيان بتلمسان، وبنو مرين بفاس، ولم يسلم هذا الوضع الجديد لبلاد المغرب من الاضطرابات السياسية، وأهم ما ميزه هو التنافس على السلطة بين الأسر الحاكمة.

لم تسلم منطقة توات هي الأخرى من هذه الاضطرابات فغياب السلطة المركزية نتيجة بعد الإقليم عن هذه الدويلات جعل منصب قاضي الجماعة هو أعلى سلطة داخل توات وكان يتخذ مقره في عاصمة الإقليم (تمنطيط)، حيث كانت له مكانة كبيرة عندهم ويتمتع باحترام الجميع²⁹.

ومن بين الذين شغلوا هذا المنصب، الذين ذكرهم صاحب كتاب القول البسيط من الأعلام الذين توافدوا على تمنطيط في القرن التاسع الهجري (15م)، جده العلامة أبو يحيى المنباري الذي تولى القضاء بعد دخول

المدينة سنة 815هـ / 1412م، وكذلك العلامة سيدي يحيى بن يدير وذلك عام 845هـ / 1442م³⁰، وكذلك سيدي عبد الله العصنوني عام 862هـ / 1457م³¹.

ولأهمية المنصب الدينية والسياسية جعل التنافس على أشده من أجل الظفر به، هذا التنافس كان يقتضي استعمال كافة الوسائل المتاحة من أجل كسبه أو الاحتفاظ به، كما لا يمكن أن نغفل الدور اليهودي في هذا الصراع ووقوفهم إلى جانب أسرة عبد الله العصنوني باحتفاظهم لهذا المنصب واحتكاره بينهم لمدة تزيد عن المئة والخمسين عاما³²، الأمر الذي لم يكن ليحدث لولا مساعدة اليهود لهم، فهم أصحاب ثروة ومال، لذا من البديهي أن يقف الشيخ العصنوني قاضي توات أنداك إلى جانب اليهود ضد الشيخ المغيلي، فيما عرف بنازلة يهود توات³³.

وبهذا يخضع منصب القضاء الذي كان يشترط في توليته العلم والدين، إلى عامل الوراثة داخل الأسرة الواحدة، نتيجة الدور الذي قام به اليهود، والتسلسل الآتي للقضاة يبين لنا أن الابن يرث هذا المنصب من أبيه، فبعد اعتزال الشيخ محمد بن أبي محمد منصب قاضي الجماعة لتفضيله العمل في التجارة تولاه ابنه الشيخ عبد الكريم بن محمد واستمر في هذا المنصب حتى توفي في عام 1042هـ / 1632م، فتولاه من بعده ابنه الشيخ محمد بن عبد الكريم وظل قاضيا حتى وفاته عام 1092هـ / 1682م، ثم شغله من بعده أخوه الشيخ البكري بن عبد الكريم حتى وفاته عام 1133هـ / 1720م فتولى ابنه الشيخ عبد الكريم بن البكري منصب قاضي الجماعة³⁴.

2- الصراع بين القصور التواتية:

انقسمت قصور توات على نفسها إلى قسمين متصارعين، حدثت بينهما حروب ضروس يجهل سببها وأهداف كل طرف من خلالها، كما يجهل كذلك

محددات هذا التقسيم فهل هي على أساس النعرة القبلية أو النعرة الجهوية مثلا، هذا الصراع الذي سوف يعرف فيما بعد بحرب "يحمد وسفيان"³⁵، ويرجح أن سبب هذه التسمية جاء نتيجة الخطاب الذي أرسله عامل السلطان إلى الملك جاء فيه: "إن أهل توات اشتدت الحرب بينهم مثل الحرب الواقعة بين أحمد (الرسول محمد) صلى الله عليه وآله وسلم وبين أبي سفيان"³⁶، بينما يرى آخرون أن هذه التسمية أخذت من الحرب التي دارت بين يحمد وسفيان، فيحمد هو تحريف لكلمة يحي، وسفيان هي قبيلة من البربر حاربت يحي فصارت عداوة بين يحمد وسفيان³⁷.

ومن خلال رصد تبعية القصور التواتية لأحد الطرفين المتصارعين، نستنتج أن الصراع كان قبلياً، فعلى سبيل الذكر لا الحصر قصور تيمي وتامست كانت تابعة ليحمد، بينما قصور بودة وتمنطيط وبوفادي وزاوية كنتة لسفيان، وهذا يعني أن الصراع في الأصل كان بين البربر والعرب، وبالتحديد بين قبائل زناتة البربرية وعرب المعقل³⁸، لأن معظم أتباع يحمد هم من العرب، أما أتباع سفيان فأكثرهم من البربر³⁹، وأخذ هذه التسمية لإظهار درجة العداوة الواقعة بينهما، تيمنا بالصراع الذي حدث في صدر الإسلام بين المسلمين ويمثلهم الرسول أحمد (محمد) صلى الله عليه وآله وسلم، وقريش يمثلهم أبي سفيان قبل إسلامه⁴⁰، ووصلت درجة العداوة بينهما إلى حد بعيد فبالرغم من اختلاط البلدين المجاورين في النخيل والبساتين، وسماع كل واحد منهما آذان الآخر للصلاة، فإن أحدهما يتعصب لفئة ليحمد والآخر لفئة سفيان، بل مجرد انتمائك لأحدى الفئتين فإنك تتعرض لأشد الكراهية من الفئة الأخرى، ولعمري أن ذلك لعداوة شيطانية ونار ظلمانية⁴¹.

ومن نافلة القول أن أي صراع بين البربر والعرب في الإقليم، كان المستفيد الأكبر منه هم اليهود، فاستمرار هذا الصراع يقوى شوكتهم ويجعلهم يقفون على مسافة متساوية تجاه كل طرف بغية كسب رضى الطرفين، لتأمين تجارتهم ونشاطاتهم الاقتصادية الأخرى، لذا لا يستبعد أن تكون هناك مساهمة ولو بطريقة غير مباشرة في إيقاظ نار الفتنة بين الطرفين كلما سنحت الفرصة لذلك لاستمراره مدة أطول، ولم يكن لينتهي لولا تعرض إقليم توات للاجتياح الفرنسي في مطلع القرن العشرين (بداية من 10 فبراير 1901م)⁴² الذي فرض سلطته في المنطقة، وبذلك وضع حدا لهذا الصراع الذي خلف وراءه شرور كبيرة ومفاسد عديدة.

الدور الاجتماعي والعمراني:

1- الجانب الاجتماعي والديني:

تحدث أغلب الذين أرخوا للمجتمع التواتي عن التعايش والعلاقة التي جمعت بين البربر واليهود، هذه العلاقة وصل مداها إلى درجة كبيرة من التنسيق والتعاون فيما بينهم ليتغلبوا على أعدائهم، ففي تأسيس مدينة تيميمون مثلاً هناك العديد من القصص والروايات التي تحدثت عن أن اتفاقاً بين البربر واليهود كان سبباً في تأسيس هذه المدينة ، فمن بين هذه الروايات نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر ما أورده الأستاذ رشيد بليل نقلا عن رواية روبول . يقول: "كان السكان الإسرائيليون (اليهود) والزناتيون يعيشون في عدة قرى من أهمها تاحطايت ولأنهم كانوا عرضة بصفة دائمة لهجمات السلب والنهب قرروا أن يتعاونوا ويبتنون قصراً كبيراً مشتركاً. كان ذلك في القرن السادس للهجرة ... ميمون أحد الزعماء الإسرائيليين (لعله يكون قد أعتنق الإسلام) ... هكذا كما يقال. أخلت تاحطايت مكانها لتين ميمون أي

(لصاحبها ميمون) التي أصبحت فيما بعد تيميمون⁴³، وقد تأثر البربر باليهود وتأثر اليهود بالبربر، هذا التأثير المتبادل يفسره اعتناق العديد من القبائل البربرية الديانة اليهودية، بالمقابل تحول بعض اليهود إلى الديانة الإسلامية وعرفوا بالمهاجرة⁴⁴.

وما تجدر الإشارة إليه أن هذه العلاقة لم ترق إلى درجة الاختلاط والمصاهرة، إذ كان الزواج لا يتم بينهم وبين السكان الآخرين، كما كانت لهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم⁴⁵، كما كان نمط حياة بعضهم صعب البلوغ، فقد كانوا يمتطون الأحصنة بأعلى السروج، ويرتدون أحسن الثياب ويتزينون كالمسلمين ويحملون في أرجلهم أحذية بها حفز (قطعة معدنية توضع أسفل الحذاء)، ويحملون عمائمات وعدة أشياء أخرى⁴⁶.

إذن فالتعاون الاجتماعي بين الزناتيين واليهود قصد بناء قصر كبير مثل تيميمون يفسر عدم وجود مشاكل في العلاقة بين المسلمين (البربر والعرب) واليهود، والدور الذي قام به اليهود للمحافظة عليها على الأقل إلى حين قدوم الإمام المغيلي.

2- الجانب العمراني :

سبقت الإشارة إلى أن اليهود عند قدومهم إلى الإقليم قاموا بتأسيس قصور جديدة مثل قصر "تازولت"، أما الذين استقروا في القصور الأخرى فإنهم اختاروا لأنفسهم أحياء ودروب خاصة بهم مثل "أولاد ميمون" بتمنطيط، هذه القصور والدروب التي أنشأها اليهود تميزت عن غيرها في العديد من المجالات، خاصة في الجانب العمراني، مما جعلهم يشكلون إضافة في هذا المجال، فظهرت العمارة اليهودية التي شيدت من نفس المواد المحلية (الطين والحجارة)، وتختلف عن العمارة البربرية بشكلها الدائري في غالب

الأحيان، والبرج الواحد الذي يتوسطها، وهي عبارة عن قلعة تتموضع فوق مرتفع تتكون من أزقة رئيسية وأخرى ثانوية، ومساكنها بها حجرات تحت أرضية (دهاليز)⁴⁷، بالإضافة إلى بناء المعابد الخاصة بهم، مثل المعبد اليهودي في قصر أولاد أهمالى بتمنطيط به عثر على تسجيل منحوت على حجر بالعبرية قد يكون نحت على الأصح سنة 517م، وقد تحول المعبد في القرن 16م إلى مسجد من طرف القبائل العربية التي سكنت فيه .

هذه العمارة اليهودية سوف تحدث تنوع عمراني إلى جانب العمارات الأخرى كالبربرية والعربية، وستعمل على تغذية هذا التنوع العمراني والثقافي للإقليم، والذي سوف يبقى شاهدا على تعايش هذه العناصر به.

خلاصة:

من خلال ما سبق يتبين لنا أن اليهود لعبوا دوراً كبيراً في منطقة توات، هذا الدور لم يكن سلبياً فقط وإنما كذلك كانت لهم أدوار إيجابية، فكانت لهم مشاركة مهمة في تجارة القوافل التي عملت على ازدياد أهمية الواحات التواتية مقارنة بمجموع الواحات الصحراوية الأخرى، كما كانت لهم أدوار أخرى في السياسة والاقتصاد والعمران.

الهوامش:

- 1- هذا ما تبينه الرسالة التي بعث بها سلطان بورنو في سنة 844هـ/1440م إلى علماء توات يشتكي لهم فيها من حال بلاده التي لم يعد يقصدها تجار كثيرون كما كانوا يفعلون سابقا أي في الفترة التي ازدهرت فيها التجارة بين السودان الغربي وشمال إفريقيا بسبب سيطرة اليهود على مرافق التجارة في توات ، الأمر الذي دفع بالتوارق

- الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو إلى قطع الطريق أمام القوافل التجارية التي تمر على أراضيهم . أنظر: عبد القادر زبادية ، الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية وجنوب الصحراء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د ط، د ت، ص 28 .
- 2- أنظر: محمد الصالح حوتية ، آل كنتة (دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة)، دار الكتاب العربي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2008م، ص 110-111 .
- 3- أنظر: ناعمي مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكتة (تاريخ العلاقات التجارية والسياسية)، منشورات عكاظ، الرباط، المغرب، 1988م، ص 47 .
- 4- أبو الحسن المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهرة، ط 02 ، 1327 هـ ، ج ، ص 39 .
- 5- اليعقوبي، البلدان، مصدر سابق، ص 176 . وللمزيد عن مصادر الذهب في التجارة الصحراوية خاصة من بلاد السودان أنظر: جودت عبد الكريم يوسف، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9 ، 10 م) ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ص 224 .
- 6- الملح لأهميته يقول عنه ابن بطوطة أثناء قيامه برحلة إلى بلاد السودان أنه وجده يستبدل بالذهب يقول: " إن ثمن الحمل الواحد من الملح في مدينة مالي يعادل عشرة مثقال من الذهب ويصل في بعض الأحيان إلى أربعين مثقال " أنظر: ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تعليق محمد السعيد محمد الزيني، المكتبة التوفيقية، القاهرة، مصر، ص 764 .
- 7- أنظر: في السلع المتبادلة كل من : ناعمي مصطفى، الصحراء من خلال بلاد تكتة، مرجع سابق، ص 48 .
- / عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا، مرجع سابق، ص 32 وما بعدها. خير الدين شترة، المبادلات التجارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي، الملتقى الوطني الأول - العلاقات الحضارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي - جامعة أحمد دراية ، ادرار ، 14-15 أبريل 2009 م .، ص 311 / .
- بلهواوي فاطمة، العلاقات التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا السوداء خلال القرن

- الرابع الهجري / 10م، مجلة عصور (يصدرها مخبر البحث التاريخي مصادر وتراجم)، جامعة وهران ، الجزائر، الأعداد 08 - 09 - 10 - 11 ، 2006 - 2007م، ص 155 ص 163.
- 8- مقابلة قمت بها مع السيدة عائشة واحدة من سكان تمنطيط المعمرات (عمرها يزيد عن 96 سنة) ، بتاريخ 2011/02/16م ، بمدينة ادرار .
- 9- عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا، مرجع سابق، ص 29 .
- 10- مقابلة خاصة، المرجع السابق .
- 11- محمد الطيب بن بابا حيدة ، القول البسيط ، تحقيق فرج محمود فرج ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1977، ص 14 .
- 12- أنظر: يحي بوعزيز ، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة ، ج 02 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط 01 ، 1995م ، ص 146 .
- 13- يذكر حسن الوزان في وصفه للمدن المغاربية مثل: (دكالة، أسفي، جبل سوساوة...) التي زارها أن الحرف والصنائع كانت بيد اليهود . أنظر : حسن الوزان ، وصف إفريقيا، ج 02 ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط 2 ، 1983م، ص 152 ص 158 ص 163.
- 14- تاملزيت : تعني مصهر الحديد أو مشعل الحداد و "أمزيت" تعني الحداد ، وهي كلمة بربرية. أنظر: رشيد بليل، قصور قورارة وأولياؤها الصالحون في المأثور الشفاهي والمناقب والأخبار المحلية، ترجمة عبد الحميد بورايو، المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ ، الجزائر ، 2008م ، ص 192 .
- 15- رشيد بليل، قصور قورارة وأولياؤها الصالحون ، مرجع سابق ، ص 192 .
- 16- مبروك مقدم، مدخل منوغرافي في المجتمع التواتي، ج 01 ، دار هوم، الجزائر، 2008م، ص 84 .
- 17- ابن خلدون، كتاب العبر، ج 06، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1413هـ/ 1992م، ص 119 .
- 18- أنظر: أحمد جعفري ، الفقارة نظام السقي الصحراوي العجيب، مجلة تراث، أبو ظبي ، الإمارات المتحدة العربية، العدد 131 ، أغسطس 2010م، ص 40 وما بعدها .

- 19- محمد بن عمر البداوي ، نقل الرواة عن أبداع قصور توات ، مخطوط بخزانة زاوية سيدي حيدة - بودة - ادرار. ، ورقة 14 .
- 20- أنظر : عبد الله حمادي الإدريسي ، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي وتصديه للخطر اليهودي بصحراء توات والصقع السوداني ، صدر بدعم من وزارة الثقافة بمناسبة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، 1432هـ/2011م ، ج 01، ص 239 .
- 21- محمد بن عبد الكريم التمنيطي ، درة الأقلام ، مخطوط بخزانة المطارفة - ادرار، ورقة 05 .
- 22- سيدي عبد الرحمن بن باعمر: هو عبد الرحمن بن عمر بن معروف بن يوسف، ولد سنة 1121هـ / 1709م بقصر تنلان، لديه العديد من المؤلفات أبرزها فهرسة ترجم فيها لعدد من شيوخه، توفي رحمه الله في 29 صفر 1189هـ / 1775م بالقاهرة ودفن في مقبرة الشيخ أبي عبد الله المنوفي. أنظر : محمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنيطي، جوهرة المعاني في ما ثبت لدي من علماء الألف الثاني، مخطوط بخزانة زاوية المهدية، ورقة 04 . عبد القادر بن أبي حفص عمر، الدرر الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مخطوط بخزانة با عبد الله، ورقة 05. عبد الحميد البكري، سلسلة علماء توات، بدون طبعة، ج 01، ص 61 ص 62 .
- 23- أحمد بن يوسف التنلاني: توفي رحمه الله سنة 1078هـ / 1667م أنظر: عبد القادر بن أبي حفص عمر ، الدرر الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مصدر سابق، ورقة 03 . كذلك أنظر: محمد عبد العزيز سيدي عمر ، قطف الزهرات من أخبار علماء توات ، دار هومه، الجزائر، الطبعة الثانية، 2002م، ص 79 ص 82 .
- 24- محمد بن عمر البداوي، نقل الرواة، مصدر سابق، ورقة 14 .
- 25- محمد الصالح حوتية، آل كنتة، دار الكتاب العربي، الجزائر، الطبعة الأولى، 2008م، ص 75 .
- 26- الرشيد: هو الرشيد هارون أبو جعفر بن المهدي محمد بن المنصور عبد الله بن محمد علي بن العباس، استخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة (170هـ) ومات في الغزو بطوس من

- خراسان ودفن بها في ثالث جمادي الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة وله خمس وأربعين سنة. أنظر: السيوطي (جلال الدين)، تاريخ الخلفاء، تقديم عبد الله مسعود، دار القلم العربي، سورية، حلب، 1411هـ/1991م، ص 268 وما بعدها. كذلك: القضاء (أبي عبد الله محمد بن سلامة)، عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف، تحقيق عبد الرحيم محمد عبد الحميد، دار الينابيع، 1997م، ص 202 وما بعدها.
- 27- محمد الصالح حوتية، آل كنتة، مرجع سابق، ص 76.
- 28- مبروك مقدم، مدخل منوغرافي في المجتمع التواتي، ج 01، مرجع سابق، ص 132.
- 29- فرج محمود فرج، إقليم توات خلال القرنين 18م و 19م، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 2007م، ص 57.
- 30- نفس المرجع، ص 93.
- 31- مقدم مبروك، الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي من خلال المصادر والوثائق التاريخية، مؤسسة الجزائر للكتاب، 2002م، ص 142.
- 32- فرج محمود فرج، نفس المرجع السابق، ص 58.
- 33- فرج محمود فرج، نفسه، ص 59.
- 34- معرفة تفاصيل هذا الصراع وما حدث فيه بين الطرفين من حروب ومعاهدات واتفاقيات. أنظر:
- محمد بن عبد الكريم التمنيطي، درة الأقلام، مصدر سابق، ورقة 10 وما بعدها. وكذلك:
- 35- MARTIN, QUATRE SIRCLES D'histoire Marocaine, Imprimerie El-maarif El-Jadida, Rabat (1994) P124 P279.
- 36- البكري، النبذة، دار الغرب، وهران، الجزائر، الطبعة الثانية، 2007م، ص 45.
- 37- محمد الصالح حوتية، توات الأزواد (دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية) خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (18م / 19م)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ج 01، ص 50.
- 38- محمد بن عبد الكريم التمنيطي، درة الأقلام، مصدر سابق، ورقة 10.
- 39- C. Bajoli, la question saharienne oasis de loeudmassaoud, Gourara, Touat, Tidikelt, bulletin de la société de géographie d'Oran, 1891, p152.

- 40- محمد الصالح حوتية، توات الأزواد (دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية) خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة (18م / 19م)، مرجع سابق، ج 01، ص50 .
- 41- محمد بن عبد الكريم التمنيطي ، درة الأقلام ، مصدر سابق ، ورقة 11 .
- 42- تواتي دحمان وآخرون ، دور أقاليم توات خلال الثورة الجزائرية (1956م/1962م) ، دار الشروق للطباعة والنشر، الجزائر، 2008م ، ص22 .
- 43- رشيد بليل ، قصور قورارة وأولياؤها الصالحون ، مرجع سابق ، ص283 ، بتصرف .
- 44- المهاجرة : يطلق على الإسلاميين من اليهود ، وهم الذين اعتنقوا الإسلام وكونوا طائفة على حدة ، ويتواجدون في توات ومناطق صحراوية أخرى ، وقد سموا بذلك الاسم لأنهم هاجروا من دينهم إلى الإسلام . أنظر: عبد العزيز بنعبد الله ، الموسوعة المغربية الحضارية والبشرية، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، طبعة 1976م ، ص203 ص204 .
- 45- Martin , quatre siècles , op , cit , p28 .
- 46- -Jacob oleil ,Les Juifs au Sahara, Le Touat au Moyen Age, CNRS,Paris,1994, p107 .
- 47- تياقة صديق ، النمط المعماري للمدينة الصحراوية (القصر) ووظيفته الاجتماعية - مقارنة أنثربولوجية لقصر تمنطيط - ادرار ، مذكرة لنيل شهادة الماجستير (مرقونة)، إشراف حجيج الجنيد ، كلية العلوم الاجتماعية ، جامعة وهران ، 2005م - 2006م ، ص72 .